السيرة النبوية
للأبناء

الجزء الأول

بقلم: الكاتب الإسلامي

شريف كمال عزب

دار الروضة

للنشر والتوزيع

٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية

ص . ب : ٢٣٣٧ رمز بريدي: ١١٥١١

تليفون :٥٩١٣٤٣٤ - فاكس : ٥٩٢٧٣٦٤

موبايل: ٠١٢٣٦٠٨٩٩٥

الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٨٤٧

مقدمــة

الحمــد لله رب العــالمين، خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والــنور، وصـــلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين وبشّر وأنــذر، ووعــد وأوعــد، أنقذ الله به البشر من الضلالة، وهدى الناس إلى صراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض، ألا إلى الله تصير الأمور . وبعد:

فــلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة، وهــدى المسلمين إلي محبته تعالى فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣١)﴾ (آل عمران: ٣١).

فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ يتسابقون إى إبــراز محاســنه ونشــر سيرته العطرة، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقــه الكــريمة، فقــد قالت السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ "كان خلقه القرآن" والقرآن كتاب الله وكلماته التامة . ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً.

لــذا وجب عزيزي الطفل وعزيزتي الطفلة أن تقرأ هذه السيرة العطرة بالفهم والعمل وأقصد بالعمل أي عمل كل ما في هذه السيرة من حكم وأفعال الرسول ﷺ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بقـــــلم
الكاتب الإســـلامي
شريف كمال عزب

الحالة الدينية عند العرب قبل ظهور الإسلام

إن الديـــن شـــيء فطري وطبيعي في حياة الإنسان؛ والشعوب البدائية عندما كانت لا تهتدي ولا تعرف دينـــاً حقيقيـــاً فإنها تخترع أدياناً تتعبد بها العرب لترضي غريزة التدين فيها، وكانوا يتجهون إلى الأشياء التي يظنون أن لهـــا قـــوة فوق البشر مثل الظواهر الطبيعية والكواكب والأفلاك، وكذلك بعض الحيوانات ويتخذون منها آلهة يعبدونها لشعورهم بأنها أقوى منهم؛ لأن الديـــن والـــتدين أساس في حياة الإنسان ولا يمكن الاستغناء عنه. والإنسان بطبعه يشعر بضعفه، وأن هناك قوة أخرى مسيطرة عليه ؛ ولابد أن يخضع لها ويركن إليها عند الأزمات.

وقـــد كان بدء تعظيم الحجارة أن أبناء إسماعيل عليه السلام لما كثروا وانتشـــروا فـــي الـــنواحي واحتاجوا إلى مزايلة الحرم كانوا يأخذون بعض حجارة الحرم للتبرك بها ويعظمون ذلك الحجر تعظيمهم للكعبة، ومن هنا بدأ تعظيمهـــم لـــلحجارة تقرباً إلى الله تعالى إلى أن فتنهم عمرو بن لُحَيّ، فلهذا أوقعهم في مصيبة عبادة هذه الأصنام.

وانتشرت عبادة الأُصنام في العرب منذ ذلك الوقت فعبدوا :

هبـــــل:

وهـــو عبارة عن صنم على صورة إنسان من العقيق الأحمر وقد كسر ذراعه فأبدلته قريش ذراعاً من ذهب. ويعتبر"هبل" كبير الآلهة وكان موجوداً بجوار الكعبة.

الـــــــلات:

وهي الإله المقدس عند ثقيف بالطائف، وهي عبارة عن صخرة مربعة الشكل وكانت تتفوق على جميع الآلهة عندهم .

العـــــزى:

كـــانت تعـــبد فـــي الحجـــاز وتحتل المركز الثاني في القداسة والاحترام والتعظيم بعد هبل عند قريش.

منـــــــاة:

وكـــان العرب جميعاً يعظمونه ويقدسونه وكان الأوس والخزرج سكان المديـــنة بصـــفة خاصة يقدمون له القرابين. وكان يوجد على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

ود:

وهو عبارة عن تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب وكان يوجد بدومة الجندل وكانت تقدسه قبائل معينة من العرب هم قبيلة كلب وقضاعة.

سواع : وكان إلهاً بأرض ينبع وكانت تقدسه قبيلة هذيل.

يعوق : بأرض الطائف وتقدسه طي ومذجح.

يغوث : باليمن وكانت تقدسه قبيلة همدان.

نسر : وكان باليمن أيضاً وكانت تقدسه حمير.

والغـــريب أن هذه الآلهة الخمسة كانت تعبد وتعظم منذ عهد نوح عليه السلام وورد ذكرها في سورة نوح في قوله تعالى:

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ (نوح: ٢١ــ ٢٣).

ومع ما كان عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام فإنهم كانوا يُعظِّمون الكعبة بما يفوق كل تعظيم لسواها من معبوداتهم لأنهم يرونها الأثر الباقي من أبيهم إسماعيل لأن بها عزهم ومناط شرفهم، يحجون البيت ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمرات ويغتسلون من الجنابة، وكل هذه الأشياء كانت من آثار الحنيفية والدين الصحيح الذي تركهم عليه أبوهم إبراهيم عليه السلام.

والغريب أنه مع انتشار الأصنام في شبه الجزيرة العربية هذا الانتشار الواسع إلا أن هناك مظاهر تدل على أن العرب لم يكونوا يعتقدون اعتقادًا حقيقياً جادًا بها . والقرآن الكريم أشار إلى ما يفهم منه ذلك المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣).

بل إن الأكثر من ذلك أن بعض العرب كانوا يزدرون هذه الأصنام بل ويحتقرونها. فيروى أن بعض العرب كان يقدس صنماً .. وذات صباح ذهب إلية فوجد ثعلباً قد بال على رأسه . فأنشد قائلاً:

أرب يبول الثعلبان برأسه تباً لرب بالت عليه الثعالب

ويروى كذلك أنه كان لكنانة صنم بساحل جدة يقال له سعد، فأقبل رجل من كنانة بإبله عند هذا الصنم ليتبرك به، وكان على الصنم أثر دماء فلما رأت الإبل أثر الدماء نفرت وتفرقت فغضب الرجل من الصنم وأنشد قائلاً:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة لا قوى لها ترجى فلا تدعى لغي ولا رشد

أخلاق العرب قبل الإسلام:

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان، ويفضي به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق:

١- الكرم:

كانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم، بين ممتدح به ومثْن على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع، وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم، فيقوم إليها ويذبحها لضيفه، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يمتدحون بشرب الخمور، لا لأنها مفخرة في ذاتها، بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السرف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم، وخمره ببنت الكرم.

وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر، يقول عنترة بن شداد العبسي:

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوق المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم

فإذا شربت فإنني مســـــتهلك مالي وعرضي وافر لم يكــلم
وإذا صحوت لم أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه، أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر و الميسر وإنما يقول:

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩).

٢- الوفاء بالعهد:

فقــد كــان العهــد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهينون في سبيله قتل أولادهــم، وتخريب ديارهم، وتكفي في معرفة ذلك قصة واحدة من قصص وفائهم بالعهود.

٣ـ عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضيم:

وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة، وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يســمعون كــلمة يشــمون منها رائحة الذل والهوان إلاقاموا إلى السيف والســنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لايبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

٤- المضي في العزائم:

فــإذا عــزموا على شيء يرون فيه المجد، والافتخار لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.

٥- الحلم والأناة، والتؤدة:

كانوا يمتدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود، لفرط شجاعتهم، وسرعة إقدامهم على القتال.

٦-السذاجة البدوية:

وكان من نتائجها الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر.

ولعـــل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هـــو عزة النفس والمضي في العزائم، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير؛ إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم.

قصة أصحاب الفيل

فـــي قديم الزمان، حكم بلاد اليمن ملك اسمة(ذو نواسٍ)، ونصب نفسه ملكاً على شعب مؤمن بالدين الذي أنزله على عيسى عليه السلام، وأراد هذا الملك أن يمنع الشعب والأهالي من الإيمان بعيسى وبالإسلام له، فأخذ يعمل لذلــك بجميع ما يملكه من الوسائل المغرية، ولما لم يجد لذلك سبيلاً، وعندما عـــرف أن المؤمـــنين لن يتراجعوا عن إيمانهم بالله أخذ يفعل القبائح، وينذر المؤمنين بالقتل على عادة الطغاة المفلسين إلا من الظُلم والبطش.

وهاهو ذا يتمادى في تعذيبه لهم، فيحرق في النار الملهبة كل من قال: لا إله إلا الله .

وفـــي جـــوار بلاد اليمن .. كانت بلاد الحبشة، وكان عليها ملك اسمه "أبرهة" يحكمها ويرأسها، وأبرهة هذا قد وصلته أنباء التعذيب والإهانات في اليمن، وعرف أن (ذا نواس) ملك اليمن يُعذب ويحرق المؤمنين بعيسى، فما كـــان مـــن هـــذا الملك إلا أن جهز جيشه، وتوجه نحو اليمن، وأسقط حكم الـــتعذيب والكفر، واستلم الملك بعد ذي نُواس المغلوب، وبهذا اختفى كل أثر لـــلأذى والتعذيب والتهديد للمؤمنين، وذهب ذو نواس إلى غير رجعةٍ، وبقي أبـــرهة مـــلكاً على اليمن، ونشر فيها من جديد دين المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

وبلاد اليمن قريبة من بلاد أخرى فيها مدن مقدسة .. مثل مكة المكرمة، ولفت نظر أبرهة أن شعوب العرب تتجمع هناك في أوقات معينةٍ وفي مواسم زمـــنية محددة وأماكن معروفة عند الجميع من أفرادها .. وكانت مدينة مكة مركـــز التجارة والحجيج، يتاجر فيها أصحاب القوافل، ويحج فيها الناس إلى البيت الحرام .. وفي داخل البيت الحرام يقدس الحجاج الكعبة التي تقع وسط البيت.

إذن: من هنا نعلم أن البيت الحرام مركز تهفو إليه جميع الأفئدة، ويحج العرب إليه في وقت معين (من كل عام).

ولقد علم أبرهة بهذا كما ذكرنا، وعرف أن التجارة تعطي أرباحاً هائلة للعرب في مكة، وان للكعبة محبة في قلوب الكثيرين من العرب. وكأن فكرة جديدة قد خطرت، لكنها شيطانية هذهِ المرة !!

ولا يرضاها دين مهما كان حتى دين المسيح الذي هو عليه أبرهة وبدأ أبرهة يفكر في منع الحجيج من الذهاب إلى بيت الله الحرام ، والأمر بالحج إلى اليمن، حيث يحكم هو تلك البلاد، وينشر دينه فيها ..

وأراد أن يحـــول عـــبادة الحـــج إلى مكـــان يدر عليه الأرباح الهائلة، والأموال الكثيرة.

ولكن أراد أن يكون الأمر مزيناً فماذا يفعل؟

رأى أن ما عليه إلا أن يبني بناءً ضخماً في اليمن ، ويُغري العرب بان يذهبوا إليه عوضاً عن ذهابهم إلي الكعبة والبيت الحرام.

والفكرة تحتاج إلى وقت تُنفَذُ فيه، وطلب أبرهة من الناس العمل ... أين العمال؟ أين المهندسون؟ أين البناءون؟ أريد أفضل بناءٍ في العالم؟

أريـــد بـــناء يحـــول الناس عن الكعبة والبيت الحرام .. اعملوا .. هيا أســـرعوا، وبســـرعة كبيرة، تعاونوا، واسعوا لإنهاء هذا البناء وتحقيق هذه الفكرة. وفعلاً .. فقد بُني في بلاد اليمن بناء جميل، على شكل كنيسة ومعبد للـــناس، وســـميت هذه الكنيسة (القليس) .. وما أن انتهى بناؤها، حتى أخذ أبرهة يُغري العرب، ويعرض عليهم أن يتركوا البيت الحرام ويحولوا حجتهم وتجارتهم إلى اليمن.

وشـــاع الخـــبر، وانتشـــر، ووصل النبأ إلى العرب في أنحاء الجزيرة العـــربية .. واستمرت الدعايات مع الإغراء، ليقنع العرب بذلك العمل. لكن العرب لم يعتادوا أن يُغيروا تقاليدهم وعاداتهم بسهولةٍ. فلم يلتفت إلى أبرهة أحـــد في رغبته، ولم يقتنع أي منهم بالفكرة الجديدة بالرغم من كل المغريات الضـــخمة، ولمـــا لـــم يجد أبرهة إلى إقناعهم سبيلاً، استعمل أسلوب القسوة والضغط على العرب، حتى يأتوا إلى زيارة كنيسته مكرهين، فاغتاظ العرب أكـــثر وأكـــثر وسخروا من أبرهة، ورفضوا طلباته وأوامره، ولو أنه أراد هدايتهم إلى دين عيسى الذي فتح اليمن من أجله لكان خيراً له.

واســـتمر رفض العرب وامتناعهم عن الذهاب إلى اليمن، وتعاونوا على عـــدم طاعة أبرهة .. ولكن ماذا سيفعل أبرهة بعد أن أتعب نفسه وعماله في هذا البناء الكبير؟ ماذا سيفعل أمام رفض العرب لزيارة القُلَّيْسِ؟؟ .. لابد من عمل .. وهاهو ذا يقرر قراراً حاسماً، لقد قرر ان يذهب إلى الكعبة فيهدمها، ويمـــنع الـــناس من الحج إليها بالقوة، ويؤدب العرب الذين رفضوا أوامره،

وأعلـــنوا إصرارهم علي الرفض وسخريتهم من بنائه وتعبه وعمله. لقد قرر أن يهدم الكعبة !! ولن يتراجع وكأنه يهدم ما فعله من خير في إنقاذ اليمن من قبل، وبئس ما قرره !!

فـــبعد ذي نـــواس الذي أرغم النصارى على ترك دينهم هاهو ذا أبرهة يـــريد أن يرغم العرب على أن يذهبوا إلى كنيسته في اليمن ويتركوا الكعبة بمكـــة. ولكـــن لـــم يجد سبيلاً للوصول إلى هذا الهدف إلا أن يهدم كعبتهم ومقدساتهم، وهاهو أبرهة يجهز الجيش ويعد العدة بكل ما يملك من الوسائل والمعـــدات والأدوات، وإن أبـــرز مـــا يميز جيشه، هو وجود الفيلة، وهي حيوانـــات لـــم يتعود العرب أن يستخدموها في معاركهم، وليس لديهم القدرة عـــلى جلبها الآن ضد أبرهة، ومن أين لهم ذلك العدد الهائل من الجيش مع الفيلة مثل أبرهة؟

ولو أنه جاءهم محرراً بلدهم من الوثنية لما عابه عاقل !!.

ولما انتهى أبرهة من إعداد جيشه وتهيئة الفيلة، أعطى الأوامر بالاتجاه والسير إلى الكعبة والبيت الحرام في مكة المكرمة.

وســـار الجيـــش، تـــتقدمه الفيلة الضخام!! وتمر الليالي، ويقطع الجيش مسافات طويلة، والجنود يأملون أن يكون النصر حليفهم لمعرفتهم بأن العرب ضعفاء، وأنهم لن يتمكنوا من هزيمة جيشهم القوي.

والحقيقـــة أن العرب لا يملكون مثل جيش أبرهة بعدده الكبير وسلاحه وأفيالـــه.. ووصـــلتهم الأخبار بأن الفيلة تقترب، وأنها أوشكت أن تصل إلى مكة.

وعلم اهل مكة بالأمر .. وخافوا من هذا الخطر القادم عليهم .. والمهدد لمقدساتهم . ومركز ربحهم وتجارتهم وأموالهم .. ولكن أين لهم المقاومة؟.. فالعدو قوي .. والفيلة مخيفة .. ولا قوة لدى مكة ؟

واقترب أبرهة من مكة .. وقبل أن يدخلها، أرسل أحد قوّاده .. لكي يتفاوض مع زعيم مكة، ورئيس قبيلة قريش (عبد المطلب)، ويقابل القائد (عبد المطلب) ويقول له: (يا عبد المطلب .. أبلغ أهل مكة وشبابها وجميع من فيها من الرجال أن يبقوا في أماكنهم، ولا يحاولوا التدخل أو المقاومة .. وإن تدخلوا، فسيقتلهم الملك أبرهة).

هذه أوامره .. فاتركونا لنهدم الكعبة، دون أن نؤذى أحداً منكم، وكل من يخالف أوامر أبرهة ويقف في طريق تهديم الكعبة سيلقى عقوبته وعذابه، ويقتنع أهل مكة بان المقاومة مستحيلة .. وأن أبرهة سيفعل فعلته، وسيهدم الكعبة.

وهاهم أولاء .. يتركون مكة ويذهبون إلى أعالي الجبال لكي لا يروا منظر الكعبة .. ولا يؤذوا أعينهم بتلك الصورة البشعة التي سيفعلها أبرهة وجنوده.

ويقول عبد المطلب: (إن للبيت رباً يحميه..) ثم يدعو الله فيقول: (البيت يارب.. البيت والكعبة.. ليس لحمايتهما بيتهما غيرك يارب).

ويخرج أهل مكة، ويبتعدون عن مدينتهم، وهم متألمون، يبكون، ويصرخون، ويسألون ربهم العون والرحمة، فالبيت سيهدم، والكعبة ستزول!!

وبيــنما هم يبتعدون .. اقترب جند أبرهة، ودخلوا مكة، يضحكون من أهــلها..ومــن رئيسها..ويقتربون شيئاً فشيئاً، حتى أوشكوا على الدخول في طــريق الــبيت الحرام. وهنا .. بدأ أبرهة ينظم عملية الدخول إلى الكعبة، ويأمــر الجــند بــأن يكــون عمــلهم سريعاً ومحققاً للغاية التي جاءوا من أجلها..وبعد دقائق، تابع الجند مسيرتهم، ولكن إلى هلاكٍ محققٍ !!.

ففجأة..يتبدل الأمر، ويتغير الموقف، ودون سابق إنذار يتوقف الجيش عن المسير، وترفض الفيلة أن تسير نحو البيت الحرام!! وأخذت تلوي رقابها مــتجهة نحو اليمين!! وما هي إلا برهة صغيرة من الزمن، حتى نظر الجند إلى السماء، فوجدوها مغطاة بالطيور؟! ماهذه الطيور؟! .. إنها طيور تحمل أحجارًا من نار!! بدأت ترمي بها الفيلة ليحترق الفيل وصاحبه!! يا للعجب!! في دقائق معدودات احترق الجند!! واحترق الجيش مع الفيلة والسلاح!!

وينقــلب حزن أهل مكة إلى فرح، إنهم يرون بأعينهم الهزيمة قد أتت على جيش الأعداء!! ولم تبق منهم قوة ولا سلاحاً ولا جنوداً !!

قــال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾(الفيل: ١ــ ٥).

نسب النبي وأسرته

نسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف بن قصي بن كــلاب بــن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كــنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

وأمه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.

عبد الله والد الرسول ﷺ :

أمــه فاطمــة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مــرة، وكـــان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيــح. وذلــك أن عــبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخــبرهم بــنذره فأطـــاعوه، فكتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيِّم هُبَل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة. ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخــوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري فأشاروا عليه أن يــأتي عرافة فيسألها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشــرة مــن الإبــل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضي ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشـــر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشراً

عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فـــنحرت عـــنه، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنساناً ولا سبعاً، وكانت الديـــة فى قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبي ﷺ أنه قال:" أنا ابن الذبيحين" يعني إسماعيل، وأباه عبد الله .

واخـــتار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهـــرة بـــن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوهـــا سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فبنى بها عبد الله في مكة ، وبعد قليل أرســـله عبد المطلب إلى المدينة ليشتري لهم تمراً فمات بها، وقيل: بل خرج تاجـــراً إلى الشـــام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين.

وترك لهم ميراثًا زهيدًا ترك لهم :خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهى حاضنة رسول الله ﷺ.

في يوم ميلاده ﷺ

في يوم مـــــــــيلاد النبي الهادي

تتناثر الأضـــــــواء فوق الوادي

تتفتح الأزهار في أنفاســـــــنا

عطراً، وخير العطر في الأمجاد

أمجادنا تاريخ أمتنـــــــا

خيــــــر الأمــــــــــــــم

تاريخنا تاريخ عزتنــــــــا

فــــــــــــوق القمــــــــم

في يوم ميلاد النبي الخاتــــــم

تتلألأ النجمات فوق العالــــــم

تتفتح الآمال في آفاقنــــــــــا

وكأنها وجه الربيع الباســـــــم

نحن العــــــــــــــــــرب

مستقبلاً... ترجوه نهضتنــــــا

فوق الشــــــــــــــهب

مولد النور

رسول الأنــــــام عليك الســـــــلام

ولدت بنــــــور يزيل الظـــــــلام

صـــــــدوقاً أميناً وتــــاج الكـــــرام

وحـــاربت الفوضى أشعت النظـــــام

فنعم النـــــــبي ونعم الإمــــــام

هديت الصـــــلاة وخير الصــــيام

ملكت بعـــطف   قلوب الأنـــــام

نصرت الضعيف   وهبت الطعــــام

وخضت الحروب   ملكت الزمـــــان

فأنت الــــرؤوف   وأنت الهمـــــام

أقمت العـــــدالة   بعد الخصـــــام

بكتك العيـــــون   بكاك الغمـــــام

دعوت العظـــيم   ومن لا ينـــــام

تكـــــون شفيعي   بيوم القيـــــام

مولـــــده ﷺ

ولـــد ســـيد المرســـلين بشِعْب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل.

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نوراً أضاءت له قصور الشام.

وسقطت أربع عشر شرفة(بلكونة) من قصر كسرى .

وخمدت النار التي يعبدها المجوس.

وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت.

ولمـــا ولدته أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء به مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له. واختار له اسم محمد. وهذا

الإسم لم يكن معروفاً في العرب وكانت عادة العرب أن يختتون أولادهم في اليــوم السابع ومعنى الختان أعتقد أنه واضح إلا أن شهرته الأكثر في مصر (الطهور).

وأول مــن أرضعته من المراضع ــ بعد أمه ﷺ ثويبة وكانت أم أبن يقــال له مسروح لذا كان في صدرها لبن، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

رضاع الرسول ﷺ

في بني سعد

فــي اليــوم الســابع لميلاد محمد ﷺ. أمر جده عبد المطلب بجزور فــنحرت؛ وأقــام حفلاً دعا إليه كبار رجال قريش فطعموا وتبادلوا الحديث الطيــب بســبب هــذه المناسبة السعيدة، وكان عبد المطلب جده سعيدًا بهذه المناسبة؛ وقد انتظرت آمنة بنت وهب المراضع اللائى كن يأتين من البادية إلى مكــة بحثاً عن الأطفال الرضع لإرضاعهم وكانت هذه العادة ولا زالت منتشرة عند أشراف مكة حيث لا ترضع الأم طفلها وإنما تلتمس له مرضعة من البادية.

وكــانت العــادة أن المرضعات يعشن في الصحراء حيث يكون الجو ملائمــاً لنمو الطفل ، فالسماء صافية، والشمس ساطعة، والهواء طلق نقي. وكانت هناك قبائل مشهورة بهذا العمل ومن هذه القبائل قبيلة بني سعد.

انــتظرت آمــنة قدوم المرضعات من بني سعد لتعطي إحداهن وليدها لترضــعه . وفي فترة الانتظار دفع الطفل إلى جارية لعمه أبي لهب تسمى

ثويــبة فارضـــعته فــترة، كمـــا أرضعت عمه حمزة لذلك اشتهر أن حمزة والرسول كانا أخوين من الرضاعة، وكان من الطبيعي أن تبحث المرضعات عن الأطفال ذوي اليسار طمعاً وأملاً في المال، وكان من الطبيعي أيضاً أن تتصـــرف المرضـــعات عن الأطفال الفقراء الذين لا يأملن في الحصول من أهـــلهم على ما يرضيهن، وبالفعل عزفت المرضعات عن محمد الطفل اليتيم الفقير. ولما كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية لم تظفر بطفل في هذه المرة فقــد كرهت أن تعود بغير طفـــل بينما عادت كل واحدة من صاحباتها بطفل أو أكثر.

فعرضـــت على زوجها أبي كبشة أن تأخذ هذا الطفل الهاشمي اليتيم لعل الله يجعل لهماعلى يديه خيراً وبركة، فوافق زوجها.

وأخذت محمدًا لترضعه. وقد حدث ما توقعت فكانت تحدث أنها منذ أن أخذت محمداً منحها الله الخير والبركة، فسمنت أغنامها وزادت ألبانها وبارك الله لهما في كل ما عندهما .

وكيـــف لا يحدث ذلك وقد خَصَّها الله تعالى بأن تكون مرضعة لأعظم طفل خلقه الله، وكيف لا يبارك الله لها في مالها وهي ترضع من أرسله ربه رحمة للعالمين؟!

مكـــث محمـــد ﷺ عند حليمة في بني سعد عامين والمرأة كلها عطف وحَـــدْب عليه وعناية به لما أصابها من الخير والبركة على يديه، وبعد أن مضـــي العامـــان عـــادت به إلى مكة لتعيده إلى أمه، ولكنها عادت به إلى الصـــحراء مرة أخرى. فكانت هذه رغبة أمه التى أرادت أن تبعده عن جو مكة إلى جو الصحراء الطلق ذى الهواء الطلق.

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد. حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامســـة من مولده وقع حادث شق صدره، وملخص هذه القصة أن محمداً كان يلعب أو يرعى الغنم مع أقرانه من الأطفال خلف مساكن بني سعد، بينما هـــم كذلك إذا بطفل سعدي يجيء إلى حليمة وهو في حالة ذعر وفزع، وقال لها: إن أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأخذاه وأضجعاه على الأرض، وشـــقا صـــدره وغسلاه وأخرجا منه شيئاً لا أدري ما هو ثم عاد الصـــدر كما كان، سمعت حليمة السعدية حديث الطفل في استغراب ودهشة مما تسمع، وندعها هي نفسها تحدثنا فتقول:"فخرجت أنا وأبوه ــ أي أبوه من الرضاع وهو زوجها أبو كبشة ــ فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهة، فالتزمته أبوه فقلنا له: ما لك يا بنى؟

قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعانى فشقا صدري فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو ".

سمعت حليمة هذا الكلام وزوجها من محمد ولم يعرفا كيف يكون تفسير هـــذا الكلام ؟ ولكنهم خشيا أن يكون هذا الذي أصاب الطفل مَسٌّ من الجان، وتخوفـــًــا من عاقبة ذلك ونتائجه على الطفل، ومسئوليتهما عنه، فقررا أن يعودا بالطفل إلى أمه.

ولكن، سبحانه الله ما أروع تواضعه ﷺ، فقد كان يفخر ويعتز بالمدة التى أقامها طفلاً رضيعاً في بني سعد، يروى عنه أنه قال:" أنا أفصح العرب، فأنا قريشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر".

وفاة أمه آمنة

كـــان لآمنة عادة أن تذهب لزيارة عبد الله بالمدينة كل سنة، ولما بلغ السادســـة أرادت أمـــه أن تصحبه في رحلة إلى يثرب ليزور معها قبر أبيه هناك، وأصبح الطفل في هذا السن يعي إلى حد ما معنى الُيتْم وفَقْـــد الأب. فهـــي السنّ التى تكثر فيها من الأطفال الأسئلة والاستفسارات، ولعل محمداً اســـتطاع أن يســـتدر عطف أمه، وجعلها تُحدّثه عن أبيه حديثاً كله شجون، حديـــثاً مشحوناً بالعواطف الجياشة عن ذكرى هذا الأب الحبيب الذي خطفه الموت مبكراً ليثوي هناك في قبر يثرب عند أخوال أبيه من بني النجار لدى عودته من رحلته التجارية.

زار محمـــد قبر أبيه وزار أخوال جده عبد المطلب في يثرب، وآن له أن يعـــود إلى مكـــة مع أمه وجاريته أم أيمن التى خلفها له أبوه والتى كانت تصحبهما في هذه الرحلة . وفي أثناء العودة كانت المقادير تخبئ لرسول الله شـــيئاً آخـــر ســـوف يزيد من آلامه وحزنه في هذه المرحلة من حياته، فقد مرضـــت أمه في الطريق؛ واشتد بها المرض ولقيت ربها ودفنت في مكان الأبواء بين مكة والمدينة.

بالله ما هذا الذي حدث لمحمد ذلك الطفل البريء الغض.

فقـــد أباه دون أن يراه بل دون أن يرى نور الحياة، وخرج إلى الدنيا يتيماً فاقد الأب، وهاهو يفقد أمه وهو لما يزال طفلاً صغيراً في أشد الحاجة إلى رعايتها وحنانها وعطفها.

لله حِكَم لا يعلمها أحد من خَلْقه، وسبحان علام الغيوب، فالله وحده هو الذي يعلم حقيقة الخير للناس وما يصلحهم في دنياهم وأخراهم، والله تعالى لم يخلق أحداً ويتركه لغيره ليرعاه ويربيه. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم محمـــدًا من أبيه وأمه، فسيتولى هو سبحانه وتعالى رعايته وتربيته وتأديبه، وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾

(الضحى:٦ـــ١١).

وصدق هو ﷺ حيث يقول:" أدَّبني ربي فأحسن تأديبي".

ولعل هذا اليُتْم المبكر كان جزءاً من الإعداد لحمل الرسالة الخالدة التى ســوف يحمـــلها محمدﷺ . الذي سوف يكون راعي العالم كله يرشده ويهديه ويأخذ بيد اليتيم والفقير والمسكين وينير الطريق للعالمين.

كفالة جده له

عـــادت الجاريـــة أم أيمن بمحمد إلى مكة والحزن يلفُّه، منكس الرأس كاســـف الـــبال حزيناً مهموماً لفقد أمه الحبيبة، وقد زاد موت أمه من عطف جـــده عليه، وكان عبد الله بن عبد المطلب قد ترك عند موته ثروة متواضعة مكونـــة من خمسة من الإبل كما قلنا، وأصبحت أم أيمن حاضنته وعوَّضته الكـــثير من حنان الأم المفقود، وهذا القدر من المال الذي تركه عبد الله لابنه لا يعتبر ثروة بالمعنى المفهوم، ولذلك تولى جده عبد المطلب كفالته ورعاية أموره التى يقصر دونها هذا القدر القليل من المال، وكان عبد المطلب يجتهد

في ألا يشعر حفيده باليتم والحرمان، ولكن عبد المطلب قد أصبح شيخاً كبيراً فلم يُعَمّر كثيراً ليكمل مسيرته في تربية حفيده والعناية به، فقد توفى عبدالمطلب بعد آمنة بعامين ومحمد لم يزل طفلاً في الثامنة من عمره، وحزن محمد حزناً شديداً على موت جده الذي كان عليه العطف كله والذي عوضه عن حنان الأب والأم جميعًا، وبكى محمد بكاءً مُرًا على جده وهو يودعه إلى مثواه الأخير.

كفالة عمه له

لما بلغ الرسول ﷺ ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفى جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه، ونهض أبو طالب بحق إبن أخيه على أكمل وجه، وضَمّه إلى ولده، وقدمه عليهم، واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله.

الرحلة الأولى إلى الشام

وجد محمد من عمه أبي طالب عوضًا عن جده عبد المطلب؛ ولم يكن أبو طالب يساوي محمدًا بأبنائه قط، بل ربما كان يميزه عليهم، ولما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره أراد عمه أن يذهب في رحلة تجارية إلى الشام لعل الله يفتح عليه ببعض المال الذي ييسر علية حياته في إعالة أسرته التي زادت واحداً بانضمام محمد إليها، وفكر أبو طالب أن يصحب محمدًا معه ولكنه عدل عن هذه الفكرة خوفًا عليه من وعورة الطريق وعناء السفر ولكن محمدًا أبدى رغبته في مصاحبة عمه الذي لم يجد بدًا من تلبية رغبة إبن أخيه وصحبه معه، وتروي بعض المصادر أن محمدًا التقى في هذه الرحلة

بــراهب نصـــراني يــدعى بحيرا، وناقش الراهب الصبي محمدًا ورأى فيه علامـــة مـــن علامات النبوة التي كان يعرفها من قراءاته في الكتب المقدسة (الإنجيل–التوراة) وعندئذ قال بحيراً لأبي طالب ناصحًا إياه:

"إرجع بابن أخيك هذا فسوف يكون له شأن عظيم".

ولعــل هــذا الــراهب كان رجلاً صالحًا وخشى على محمد من خبث اليهود ومكرهم، فهم إن رأوه فقد يعرفونه وقد يمكرون به شرًا.

عــلى كــل حـــال وقعت كلمات الراهب من أبي طالب موقعًا جميلاً وفتحت في نفسه بوارق الأمل على مستقبل ابن أخيه وشكر الراهب على هذه النصيحة؛ وعاد بابن أخيه إلى مكة .

وذلــك كـــان له أثر في نفس أبي طالب لأن في هذه الرحلة خرج لهم الــراهب لاستقبالهم علي الرغم من أن هذا كان لا يحدث من قبل فلقد عرف الــراهب رسول الله ﷺ بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعــثه الله رحمة للعالمين. فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وَخَرَّ ساجدًا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده كما قلنا.

محمد يرعى الغنم

عـــاد محمـــد مع عمه من رحلته تلك، ولما كانت الرحلة غير ناجحة تجاريًا، ولما كان محمد يعلم حقيقة أحوال عمه المالية. لم يشأ أن يكون عبئاً ثقيـــلاً عـــليه وكره أن يكون عالة، وأراد أن يكون له عمل يكسب منه قوته

ويعــول نفسه، ويساعد عمه إن أمكن، ولكن أي عمل يستطيعه هذا الصبي؟ إن مثله لا يلائمه إلا رعي الغنم ليكن ذلك فما في ذلك من عيب فرعي الغنم حرفة الأنبياء المفضلة، ولذلك كان النبي ﷺ يقول:"ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم..بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت أنا وكنت أرعى غنم أهلي بأجياد".

كــان ﷺ يــرعى الغنم لأهله ولبعض أهل مكة بالأجر، ولعل في هذا الســلوك النــبوي الكريم درسًا لكل مسلم في أن يحاول كسب رزقه بيده ولا يأنف من أي عمل لأن خير الطعام وأفضله ما كان من كسب اليد.

استمر محمد ﷺ يرعى الغنم، ولعل من المفيد أن نقف لحظة عند هذه الحــرفة الــتى كــان يحترمها الأنبياء وهى رعي الغنم، فلماذا رعي الغنم بــالذات؟ لعــل في ذلك ما يدفع إلى حياة التأمل والتفكير في الكون وخالقه ومدبــر شــئوونه، فرعي الغنم في الصحراء الطليقة يفتح أمام الإسان آفاقاً واسعة للتفكير في ما هو الكون؟ ما هي القوة الجبارة التي أبدعت هذا الكون؟ والتي ترعاه وتدبر شؤونه.

كــل هذه معان لابد أن تجول في ذهن راعي الغنم، خصوصًا إذا كان من هذا الطراز من الرجال الذين أعدهم الله سبحانه وتعالى واصطفاهم لهداية البشرية ورعايتها وإخراجها من الظلمات إلى النور، وفضلاً عن ذلك فرعي الغــنم فيــه تدريب على فن القيادة والصبر على معاناتها ومشاكلها وتحمُّل تبعاتها. استمر محمد يرعى الغنم حتى اشتد عوده وأصبح شابًا يفيض حيوية ونشاطًا، وأصبح مؤهلاً لأن يزاول عملاً آخر يُدِرَّ عليه دخلاً أكبر فانتقل إلى العمل في التجارة.

محمد في تجارة خديجة

ظل محمد ﷺ يزاول حرفة رعي الغنم إلى أن أصبح شابًا وأصبحت حرفة رعي الغنم لا تناسبه، وأصبح في إمكانه أن يزاول عملاً آخر يليق بالرجال، وفي نفس الوقت يكون مصدر دخل أكبر مما تدره حرفة رعي الغنم، دخلاً يساعده في إعالة نفسه، خصوصًا وأن عمه أبا طالب كان في حالة إقلال من المال كما أشرنا إلى ذلك كثيرًا ويبدو أن أبا طالب نفسه كان مشغولاً بالتفكير في مستقبل محمد، وفي البحث له عن عمل يناسبه في هذه المرحلة من عمره، خصوصًا وأنه أصبح رجلاً ولابد له أن يتزوج ويكون أسرة ويعتمد على نفسه ومما يدل على صحة هذا التصور ما روي أن أبا طالب نفسه خاطب محمدًا قائلاً:

"يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغني أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها؟ قال محمد: ما أحببت ياعمي.

وفي هذا الحوار القصير الذي جري بين محمد وعمه ما يكشف عن الظروف المالية الصعبة التى كان يعانيها أبو طالب، ولكنه رغم ذلك لم يضق بابن أخيه ولم يجرح إحساسه وإنما يخاطبه في رفق ويشاوره قبل أن يفاتح خديجة في أمر تشغيله من تجارتها، ومحمد كان يحس بما يعانيه عمه، ولذلك فوض الأمر إليه وإلى حُسْن تقديره وقال له: "ما أحببت يا عمي".

وفي قول أبي طالب لمحمد: إن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين أي: جملين صغيرين- ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، ما يدل على ثقة أبي

طالب في ابن أخيه وأنه أكفأ من غيره لقوته وأمانته ومتانة خلقه، ووعده أنه سيطلب له من خديجة أجرًا أكبر من أجر أمثاله.

بعد هذا توجه أبو طالب إلى خديجة ليعرض عليها الأمر. فقال لها: هل لك يا خديجة من تستأجري محمدًا فقد بلغنا انك استأجرت فلانًا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة. وكان جواب خديجة لأبي طالب يحمل احترامها لهذا الشيخ الوقور؛ واحترامها وودها وثقتها في محمد فقالت له على الفور في ود ظاهر: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا؛ فكيف وقد سألته لقريب حبيب. وكأن الأقدار قد أنطقت خديجة بما ينبئ عن العلاقة المقدسة التي ستنشأ بين محمد وخديجة نتيجة لهذه الصفقة الموفقة.

عاد أبو طالب من عند خديجة وهو مسرور بلقائها وترحيبها واحترامها له وثقتها في محمد؛ وأخبر ابن أخيه بنتيجة لقائه معها؛ وقال له: يابن أخي هذا رزق ساقه الله إليك .

كان لخديجة غلام يسمى ميسرة وكان أثيرًا لديها تأتمنه على مالها وتجارتها وتثق فيه، وخرج محمد في أول رحلة تجارية له في تجارة خديجة إلى الشام مع هذا الغلام، ولما كان هذا الغلام قد سافر إلى الشام قبل ذلك أكثر من مرة. ويعرف الطريق معرفة جيدة، وقد اكتسب خبرة بالعمل وبالناس. فقد أوصاه أبو طالب خيرًا بمحمد أن يعتني به في تجربته الأولى هذه. ووعده الغلام خيرًا.

فانطلقت القافلة إلى الشام. في ذات الطريق الذي كان محمد قد سلكه من قبل مع عمه أبي طالب عندما أخذه معه إلى الشام وهو لم يزل صبيًا يافعًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ولقد ذكرت هذه الرحلة الثانية محمدًا

برحلته الأولى. وأججت في نفسه التفكير والتأمل في كل ما رأى وسمع من قبل عن الشام وأحواله وعقائد أهله وعباداتهم.

ويقال: إن محمدًا في رحلته الثانية هذه إلى الشام قد التقى بكثير من النصارى ورهبانهم وتحدث إليهم، وناقشهم وناقشوه في دين عيسى عليه السلام، وأكسبت هذه الرحلة محمدًا كثيرًا من المعارف التجارية والتجارب، وليس كالأسفار في إذكاء تجارب الإنسان وزيادة معلوماته عن الحياة والأحياء.

ومن الناحية التجارية فقد كانت الرحلة ناجحة جدًا، وموفقة للغاية. وظهرت أمانة محمد وصدقه وأخلاقه مما حببه إلى قلوب رفاقه في الرحلة. وبصفة خاصة الغلام ميسرة. وربحت تجارة خديجة هذه المرة ربحًا أكثر من أية مرة سابقة. ولما كان التاجر بطبعه يحب الربح، ولما كان الغلام ميسرة من طول خدمته لخديجة وعمله في تجارتها يعرف ميولها وطباعها ومزاجها.

لذلك عندما عادت القافلة إلى مكة واقتربت من الديار اقترح ميسرة على محمد أن يسبق القافلة إلى مكة ليكون أول من يقابل خديجة من رجالها ويزف إليها بشرى عودتهم جميعًا سالمين، ويبشرها بما تحقق لها من الربح وبما ساق الله لها من الخير على أيديهم، وكان ميسرة على ما يبدو – وقد أحب محمدًا لأمانته وخلقه.ويريد مصلحة محمد من ذلك الاقتراح؛ لأنه يعرف أن خديجة لابد أن تكافئ محمدًا على هذه البشرى. وافق محمد على اقتراح ميسرة؛ وتقدم القافلة ووصل إلى مكة ليجد خديجة تنتظر عودتهم بشغف لتعرف أخبار تجارتهم؛ وتطمئن على رجالها.

وكان سرورها عظيما عندما اخبرها محمد خير القافلة . وزاد سرورها وإعجابها بمحمد عندما وصل غلامها ميسرة ، وقص عليها ما رأى من أمانة محمد ورقة شمائله وجمال طباعه وسمو خلقه ، وكانت خديجة تسمع من قبل عن محمد وصدقه وأمانته وتفوقه على شباب مكه ، ولكنها الآن تأكدت بطريقة عملية واقعية وبتجربة حية مما كان من قبل حديثا نظرياً فقط وبدأ إعجاب خديجة بمحمد يتحول إلى حب غير تفكيرها الذى كانت قد أستقرت عليه من قبل وهو إبعاد فكرة الزواج مرة أخرى عن مجال حياتها ، وبدأت تعيد التفكير ماذا لو تزوجت هذا الشاب الهاشمى النبيل الذى يفيض حيوية ونشاطا وفى نفس الوقت يتحلى بهذه الصفات الأخلاقية النادرة .

زواجه من خديجة

ولما رجع إلى مكه ، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة مالم تر قبل هذا ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطلق صادق ، ونهج أمين . وجدت ضالتها المنشودة – وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها ، فتأبى عليهم – ذلك فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضى بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى إثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكان سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلاً ، وهى أول إمرأة تزوجها ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

وكل أولاده ﷺ منها إلا إبراهيم، ولدت له أولاً القاسم–وبه كان يكنى– ثـم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب الطاهر.

بناء الكعبة و قضية التحكيم

ولخمـس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فإنهـا كـانت رضَمَة([1]) فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكانوا يهابون هدمهـا فابـتدأ به الوليد بن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصـبه مكـروه، ولـم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده. والذى تولى البناء بنـّاء رومي اسمه (باقوم) وقـد قسـموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة على إتمامهـا علي قواعد إسماعيل، فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو من ست أذرع وصـعدوا بهـا فـي الجو، حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود، اختـلفوا فيمـن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع، فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه.

وكـان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله، فطلب رداء ووضع فيه الحجر وطـلب مـن الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه، وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده الشريفة فوضعه مكانه.

وكان هذا الحكم موجبًا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم، وصارت الكعـبة بعـد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه خمسة عشر مترًا وطـول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ و ١٠مترًا، والحجر

([1]) الرضمة : الصخرة العظيمة.

موضوع على ارتفاع ٥,٨١ مترًا من أرض المطاف والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢مترًا وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء في أسفلها متوسط ارتفاعها ٠,٢٥ مترًا ومتوسط عرضها ٠,٣٠ متراً وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت ولكن قريشًا تركتها.

وللكعبة أربعة أركان: الشمالي الشرقي واسمه الركن العراقي، والغربي الشمالي واسمه الشامي، والجنوبي الغربي واسمه اليماني، والشرقي الجنوبي واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه، وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء.

محمد في غار حراء

عندما تزوج محمد ﷺ من خديجة ـ رضي الله عنها ـ كان في حوالى الخامسة والعشرين من عمره، وقد أتته الرسالة على رأس الأربعين؛ أي أنه قضى خمسة عشر عامًا بين زواجه من خديجة وبين تكليفه بالرسالة الخالدة، فكيف كان يقضي أيامه ولياليه في هذه السنين الخمس عشرة؟

كان محمد قبل زواجه من خديجة عائلاً؛ أي قليل المال، فأغناه الله، وبعد أن كان مطلوبًا منه أن يعمل ويكدح ليحصل رزقه، أصبح بعد زواجه من السيدة خديجة الفاضلة الغنية غير مُطَالبٍ بالعمل لأن زوجته كفته بمالها مؤنة البحث عن الرزق، وعاش معها زوجًا وفيًا مخلصًا رقيق الشعور لزوجة وفية مخلصة عفيفة شريفة، ورفرفت السعادة على هذه الأسرة الكريمة، ووجد محمد ﷺ متسعًا من الوقت ليفكر ويتأمل في أمر هذا الكون الفسيح، وفي القوة القادرة التي أبدعته وأحكمت صنعه، وكان محمد يرفض

مـــا عـــليه قومه من عبادة الأصنام وما غرقوا فيه من الفساد وفسادهم. فالله تعـــالى الذي يعلم حيث يجعل رسالته صان نبيه ومصطفاه من عبث الجاهلية وفسقها ومجونها فوجه خاتم الرسل ﷺ إلى التفكير والتأمل.

ولكي يهيئ لنفسه جوًا مناسبًا للتفكير بعيدًا عن صخب مكة وضجيجها كـــان يذهب إلى غار حراء في شمال مكة على بعد بضعة أميال منها. كان يصعد إلى هذا الغار الذي يقع على قمة هضبة وعرة المسالك والطرق. وكان يتجشم هذه المشقة البالغة ليبتعد عن الخلق ليفكر في الخالق سبحانه وتعالى، وكان شهره المفضل للتحنث والتفكير والتأمل هو شهر رمضان المبارك كان محمـــد يذهـــب إلى غـــار حـــراء ومعه طعامه وشرابه، ويقضي فيه الأيام والليالي، ثم يعود إلى بيته ليتزود مرة أخرى ويرجع إلى الغار ليستأنف تعبده وتفكيره؛ وهكذا لم يكن لمحمد ﷺ وهو في غار حراء من شغل سوى التفكير والـــتأمل والتماس الحقيقة. ويختلف العلماء في الأوقات التى كان يقضيها في غار حراء منقطعًا للتفكير والتأمل؛ وهل كان يتعبد على ملة بعينها؟!

فيرى بعضهم أنه كان يتعبد على ما بقى من شرع نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى؛ أو على ما بقى من هذه الشرائع جميعها.

ولكن على أي حال أن محمدًا في تفكيره وتأمله ينشد مخرجًا للعالم مما هو فيه من الشرك والوثنية والجهالة العمياء التى يعيش فيها.

لأن طول التفكير والتأمل يدل على أن ما بقى من هذه الشرائع القديمة التى تنوسيت تعاليمها على طول الزمن لم يكن كافيًا ليريح نفس محمد ويدخل عـــليها الطمأنينة؛ تلك النفس المستشرفة التى كانت تبحث عن الحق المجرد والحقيقة المطلقة.

بـــدء الوحي

ظل محمد ﷺ يتردد على غار حراء حتى شارف الأربعين من عمره؛ وهـــي رأس الكمـــال. وقيل: في هذا السن بُعث كل الرسل فبدأت آثار النبوة تتلوح وتلتمع له من وراء آفاق الحياة، وتلك الآثار هي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيـــا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر وزادت رؤياه وكان يأمل في أن يصل إلى الحقيقة، فأحس أنه أوشك أن يضع قدميه على الصراط المستقيم الموصل إلى الحقيقة المطلقة الخالدة.

فـــلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن .

وبعـــد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنـــه كـــان يوم الاثنين ٢١ رمضان ليلاً موافق لـــ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة ميلادية وثلاثة أشهر و١٢ يومًا.

ولنستمع إلى عائشة الصديقة ــ رضي الله عنها ــ تروي لنا قصة هذه الواقعـــة الـــتى كـــانت شعلة من نور الله، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضـــلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ. قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ:

أول ما بدئ به الرسول ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يـــرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغـــار حراء، فيتحنث فيه– وهو التعبد– الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى

أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فـــي غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّــني حــتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فــأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾ (العلق: ١-٣).

ألــقى مــلك الوحـــي جبريل عليه السلام على قلب النبي الكريم هذه القطــرات الأولى مـــن الفيض الإلهي من وحي الله سبحانه وتعالى. وتركه وانصرف. ولما أفاق النبي ﷺ من المفاجأة تملكه شعور غير عادي، فما هذا الــذي حــدث، وأخذ يلتفت يمينه وشماله فلم ير شيئًا، وأخذ يستعيد ما حدث ليعــرف مــا المراد منه وما هدفه، فهذا الذي حدث لمحمد شيء هائل عظيم فهــو وحـــي الله تعالى يأتي الأنبياء ليكلفهم بحمل رسالات السماء إلى أهل الأرض.

والحق أن محمدًا لم يشك في أن هذا وحي من الله لأن الوحي لابد أن يكون مصحوبًا باليقين من المُنَزّل عليه الوحي. ولكن لعل هذه المفاجأة أخذته عــلى غــرة فلبث فترة يفكر في هذا الأمر وأخيرًا عاد إلى بيته ليقص على زوجــته خديجـــة ما حدث له، خصوصًا أن خديجة كانت دائمًا درعه الواقي وحصنه الحصين الذي يلجأ إليه كلما حزبه أمر ليجد عندها الأمان والطمأنينة والسكينة والهدوء.

فعاد إليها هذه المرة من غار حراء وهو بحالة لم يأت عليها من قبل، حتي بادرها هو قائلاً:

خديجة؛ مالي؟

كأنه يقول لها: هل ترين بي شيئًا غير عادي ما لم يكن من قبل؟

وحدثهـــا بحديث جبريل وتلا الآيات التي تلاها جبريل –عليه السلام فـــي الغـــار فأقبـــلت عليه السيدة الجليلة تسمع في اهتمام ظاهر تريد تهدئة زوجهـــا ولم يبد عليها أي خوف أو قلق أو اضطراب مما حدث لزوجها، بل على العكس قالت له في لهجة واثقة:

"أبشر يا بن عم وأثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ... ووالله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضعيف، وتعين على نوائب الحق". نبي هذه الأمة! ما أعظم هذا الذي سمعه محمد من زوجته الفاضلة.

نعـــم نـــبي هذه الأمة وحدها وهاديها ومرشدها، أنت رحمة الله التي أهداها، لا لهذه الأمة وحدها ولكن للعالمين. لم يكن محمدﷺ يشك في أن هذا الـــذي ألقاه عليه جبريل هو وحي الله–كما أشرنا– لكنه كان يريد أن يطمئن قلبه على طريقة إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله تعالى أن يريه كيف يحي الموتى.

ولكن تزيد خديجة محمدًا طمأنينة وثباتًا ولكي يتأكد من صدق كلامها ذهـــبت إلى إبن عمها ورقة بن نوفل وحدثته بحديث زوجها وأنصت الرجل إلى حديثها وسكت لحظة ثم قال :

"قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جـــاءه الـــناموس الأكـــبر الـــذي كان يأتي موسى وإنه لنبي الأمة فقولي له فليثبت".

وبعد فترة سمع ورقة من محمد ما حدث فقال له: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.

فترة الوحي

أمـــا مدة فترة الوحي كانت أيامًا وقد بقى الرسولﷺ في أيام هذه الفترة كئيبًا محزونًا، تعتريه الحيرة والدهشة فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه:

وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا عدا-أي: الذهاب بسرعة-منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفي بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيســكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفي بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

أي: إنك رسول الله حقًا.

فــلما عرف ﷺ أنه نبي الكبير المتعال، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتفاعه لمجئ الوحي سببًا في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية.

فقال ﷺ :

فبيــنما أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فــإذا المــلك الــذي جاءني بحراء قاعدًا على كرسي بين السماء والأرض، فوجسْتُ منه-خفت منه-حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني

زملوني، فزملوني فأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر إلى قوله فاهجر، ثم حمى الوحي وتتابع.

المسلمون الأولون

إن خديجـــة بـــنت خويلد رضي الله عنها كانت من أول من آمن بالله ورسوله، وكان هذا هو المتوقع من هذه السيدة الجليلة التي كانت مواقفها كلها جليـــلة وعظيمـــة مـــع النبي ﷺ منذ أن اقترنت به إلى أن فارقت الدنيا إلى رحـــاب ربها سبحانه وتعالى. وكان ثاني من أسلم علي بن أبى طالب ﷺ، ذلـــك لأن النـــبي ﷺ كان قد ضم عليًا إلى أسرته بعد أن تزوج من خديجة ليخفف عن عمه أبي طالب بعض أعباء معيشته وليرد له الجميل الذي أسداه إليه في طفولته وصباه وكان النبي ذات يوم يصلي هو وزوجته خديجة طبقًا لمـــا عـــلّمه ربه، وبينما هما يسجدان رآهما علَي فتعجب من هذا الذي رآه ولكنه لم يفهم معناه، فسأل النبي لمن تسجدان ؟

فأجابه النبي ﷺ بما معناه، إننا نسجد لله الواحد الأحد الذي بعثني نبيًا أن أدعو الناس إلى دينه .

ودعا النبي عليًا أن يؤمن بالله ورسوله. ولكن يروي أن عليًا الذي كان صغيرَ السن في ذلك الوقت طلب من النبي أن يعطيه فرصة حتى يأخذ رأي والده في هذا الأمر الخطير، ويروى كذلك أن عليًا بات ليلته يفكر فيما حدثه به النبي ﷺ، ولم ير ضرورة لاستشارة أحد في أمر يخصه وحده وقرر رأيه على أن يعلن للنبي إيمانه بالله ورسوله وفعلاً أعلن علّي بن أبي طالب إيمانه بالله ورسوله ودون أن يشاور أحدًا وقال:

"لقد خلقني الله دون أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله".

وبهـذا أصـبح علي ثاني اثنين آمنا بالله ورسوله، وبعده أسلم زيد بن حارثـة مـولى النبي ﷺ وبذلك انحصر الإسلام في بيت محمد هو وزوجته خديجة وابن عمه علي ومولاه زيد بن حارثة.

وبدأ النبي يفكر في كيف يدعو قريشاً إلى الإسلام؟

وماذا سيكون موقفها من هذا الدين الجديد؟

واتجه تفكير النبي أول الأمر إلى صديقه أبي بكر ابن أبي قحافة، كان محمـد يستريح إلى أبي بكر، ويعرف فيه صدقه وأمانته ومروءته، لذلك لم يتردد النبي في دعوة أبي بكر إلى الإيمان بالله ورسوله، ولم يخيب أبو بكر ظـن النـبي فيه بل أسلم على الفور ولم يتردد لحظة واحدة وكان النبي ﷺ يحفظ هذا الموقف الرائع لأبي بكر ويذكره دائمًا فكان يقول :

"مـا دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له فيه كبوة -أي نظر وتردد- إلا ما كان من أبي بكر فما عتم أن أسلم. أي: أسلم على الفور دون إبطاء".

لـم يكـن أبو بكر أسرع الرجال إلى الإيمان بالله ورسوله فقط، وإنما أصـبح مـنذ إسلامه جنديًا من جنود الله المخلصين الذين كرسوا كل وقتهم وجهدهـم إلى الدعوة لدين الله، وقد أسلم على أيدي أبي بكر طائفة من كبار الـرجال فـي مكـة الذين أصبح لهم فيما بعد شأن عظيم في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وأصبحوا من كبار القادة وعظمائهم.

ولــو لــم يكن أبو بكر يتمتع بشخصية قوية وجذابة، وبصفات حميدة تقــربه إلى الرجال وتقرب الرجال إليه لما نجح في هذه المهمة الصعبة في هــذا الوقت الذي أحجمت فيه قريش كلها عن الدخول في الإسلام، بل أخذت تصــد الناس عن الدخول فيه، وكان ممن أسلم على يدي أبي بكر وبدعوته: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقــاص، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، ومن الجدير بالذكر أن هــؤلاء الــرجال أصبحوا أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانوا من الذين بشّرهم الرسول بالجنة وتُوفي الرسول وهو راض عنهم.

أمر القيام بالدعوة إلى الله

لما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾. (المدثر: ١-٧)

قــام النبي ﷺ من يومها ولم يقعد حتى توفاه الله وكيف لا؟ وقد جاءته هذه الأوامر من عند علام الغيوب جل وعلا.

أوامــر بســيطة ساذجة في الظاهر، بعيدة المدى والغاية، قوية الأثر والفعل في الحقيقة ونفس الأمر.

كأنــه فــي هــذه الآيات يقول: يا محمد إن من يعِشْ لنفسه قد يعيش مســتريحًا، أمــا أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ ؟

والعيش الهادئ ؟

والمتاع المريح !

قم للأمر الذي ينتظرك!

والعبء الثقيل المهيأ لك!

قم فقد مضى وقت النوم والراحة !

وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل !

والجهاد الطويل الشاق !

قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد !

إنها كلمات عظيمة رهيبة، تنزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء.

وقام الرسول ﷺ ، فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا !

لم يسترح ولم يسكن ولم يعش لنفسه ولا لأهله.منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب..جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء.

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية-على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما:

١-الدور المكي، ثلاث عشرة سنة تقريبًا.

٢-الدور المدني، عشر سنوات كاملة .

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل:

١- مرحلة الدعوة السرية، ثلاث سنين.

٢- مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة.

٣- مرحـــلة الدعوة خارج مكة، وفشوها فيهم، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلي هجرته ﷺ إلي المدينة.

الدعوة السرية

أُمـــر الرسول ﷺ بالدعوة إلى دين الله، فأخذ يدعو القوم سرًا ولا يفضي بها إلا إلى مـــن يثق بكتمانه، فاستجاب له طائفة من قومه قد أشرق نور الإيمان على بصائرهم وشرح الله صدورهم للإسلام، فأقبلوا عليه لغير رغبة في مال لما يعلمون من حاله ﷺ من العيش الكافي الذي كان يعتمد على مال زوجته السيدة خديجة، وكثير من الذين شرح الله صدورهم للإسلام كانوا أغنى مالاً مـــن الرسولﷺ،وكذلك لم يدخلوا الإسلام من أجل البحث عن عزة ومكانة، فمنهم من كان ذا عز في قومه وفي قريش على الإطلاق، فما دخلوا الإسلام إلا تلـــبية لضـــمائرهم التي استضاءت بنور الحق، ومن يهده الله فما له من مُضِل.

كان الرسول ﷺ يدعو إلى دين الله كل من توسم فيه خيرًا ممن يعرفهم بحـــب الحـــق، وكذلك هم يثقون برسول الله ويعرفون عنه الصدق والأمانة فأجابـــه إلى الإيمـــان بهذا الدين السابقون الذين تحدثنا عنهم قريبًا تحت اسم "المسلمون الأوائل".

وقـد كـان الرسـول ﷺ يجتمع بهؤلاء المسلمين الأوائل لإرشادهم وتعـليمهم مسـتخفيًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة، وذلك قبل أن يشتد سـاعد القوم ويجهر رسول الله بالدعوة العامة. وقد استمر أمر الدعوة فرديًا وسريًا مدة ثلاث سنين أجابه في أثنائها إلى الدين جماعة لهم شأن في قومهم ومعهم غيرهم من المستضعفين.

وصل الخبر إلى قريش

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة –في هذه المرحلة– وإن كانت سرية فردية، لكن بلغت أنباؤها إلى قريش، بيد أنها لم تكترث بها.

وتـرامت هذه الأنباء إلي قريش فلم تهتم بهذا الخبر قريش ولم تضعه موضـع إهتمام، ولعلها حسبت محمداً ممن يتكلم في الألوهية وحقوقها مثل أميـة بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، ولكن خشيت قريش أن يصل الأمر إلى خـارج مكة فيفسد عليهم تجارة الأصنام التي اشتهرت بها مكة، وخافت أن يمتد أثرها إلى زوار الكعبة فأخذت تراقبه وتراقب مصير الدعوة.

الجهر بالدعوة

بعد ذلك أنزل الله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤)﴾ . (الحجر: ٩٤).

فجهر بالدعوة إلى الله تعالى واثقًا من الله بالتأييد والنصر، فصعد على الصـفا وجعـل يـنادي قريشًـا بأسـمائها، فأخذ الناس يتوافـدون علـيه ويـتجمعون حوله من كل ناحية، فلما رأى أنهم قد اجتمعوا جميعًا قال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقِي؟

قالوا: ما جربنا عليك كذباً . قال: فقال أبو لهب وهو عمه: تبـاً، لك ألهذا جمعتنا؟

فأنزل الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ (المسد).

ولمـا أنـزل الله قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ (الشعراء ٢١٤). بعـد هـذا الأمـر الإلهـي بدعوة الأقربين إلى الدين، دعا النبي ﷺ عشـيرته وأهله وصنع لهم طعامًا في بيته، وبعد أن تناولوا طعامهم عرض عليهم الإسلام وحدَّثهم قائلاً:

مـا أعلم إنسانـاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟

فأعرضـوا جميعـاً عنه، وهَمّوا بتركه، ولكن علّي بن أبي طالب قام- وكـان لا يـزال صبيًا ــ وقال: "أنا يا رسول الله عونك، أنا حَرْب على مَنْ حاربت. ولكن بني هاشم ابتسموا ساخرين من إجابة علّي لابن عمه، وكأنهم استصغروا الصبي في نظرهم، وانصرفوا دون أن يستجيبوا لدعوة النبي ﷺ.

بعد ذلك نزل على النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ (الحجـر: ٩٤) وكان معنى هذا أن ينتقل من دعوة عشيرته الأقربين إلى دعوة أهل مكة جميعًا، وليكن ما يكون.

فصعد النبي على جبل الصفا وجعل ينادي أهل مكة جميعاً قائلاً:

- يا بني عبد المطلب.

-يا بني عبد مناف.

-يا بني زهرة.

-يا بني تميم.

-يا بني مخزوم.

-يا بني أسد.

فاجـــتمعوا عليه، فقال لهم: "أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً خلف هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدِّقِي؟

قالوا: نعم. ما جربنا عليك كذبًا قط.

قـــالوا: فإني نذير لكم، ورسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، بين يـــدي عذاب شديد، وإن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبًا، إلا أن تقولوا:"لا إله إلا الله".

عندئذ نهض عمه أبو لهب وصاح ساخرًا وقال له : تبًا لك ألهذا جمعتنا؟

انفـــض الجميع من حوله ﷺ دون أن يؤمنوا به، ولقد استاء النبي ﷺ جدًا من موقف عمه أبي لهب، ولكن الله تعالى تولى عنه إجابة هذا المشرك المتكبر القاسي القلب فأنزل فيه سورة بتمامها وهي قوله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) ﴾ (المسد).

ســـمعوا هـــذا الكلام فانتفخت أوداجهم من الغيظ وغَلَتْ صدورهم من الحقد، ولووا رؤوسهم، وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومـــن بيننا وبينك حجاب، وبسطوا ألسنتهم وأيديهم إليه بالسوء ونالوه بالأذى فصبر محتسبًا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

لتغضـــب قريش، وليغضب أبو لهب وأمثاله ما شاء لهم الغضب، فإن ذلـــك لن يُوقِف مَدَّ الدعوة الإسلامية، ستنتصر الدعوة بإذن الله، وسيعم الحق والعدل أرجاء العالم ولو كره الكافرون.

قريش تقاوم الدعوة

لمـــا رأت قـــريش أن محمدًا ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك، فكروا في اختراع أساليب تُوقِف هذه الدعوة وتصدها وتقتلها في مهدها. ومن هذه الأساليب:

١- الســـخرية والـــتحقير، والاســـتهزاء والتكذيب، قصدوا بهذا أن يخذل المسلمون وأن تضعف شوكتهم وأن يقل مصدقهم .

٢- تشـــويه تعاليم الإسلام وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الأقاويل الواهية حول هذه التعاليم.

٣- مســـاومات أرادوا مـــنها الكذب على الرسول ﷺ حتى يصبح الإسلام والشرك شيئًا واحدًا.

أعمـــل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لكف الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهـــم مقتصـــرون على هذه الأساليب، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد

والـــتعذيب . وبعدما أدركوا أن أفعالهم هذه لم تغير شيئًا بدأوا في التفكير في شيء واحد وهو بذل كل طرق التعذيب للرسول والذين آمنوا معه.

وبالفعل عذبوا المؤمنين وساموهم سوء العذاب مما أدى إلى:

الهجرة إلي الحبشة

لقـــد توالـــت الإهانات حتى طفح الكيل بإيذاء المسلمين وزاد العذاب عليهم حتى لحق بأشرافهم فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم: لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فـــرجاً ممـــا أنـــتم فيه . ففروا إلى الله بدينهم وكانت أول هجرة في الإسلام فهاجر منهم عشرة رجال وأربع نسوة، ثم تبعهم بعد ذلك آخرون حتي كانت عدتهـــم ثلاثـــة وثمانين رجلاً ومعهم من النساء سبع عشرة إمرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار، وكان المهاجرون من جميع بطون قريش.

فـــلما القـــوا رحالهم بالحبشة واستقر بهم المقام أكرم النجاشي مثواهم وأعلنوا هناك عبادتهم بلا خوف ولا وجل.

بلغ ذلك قريشاً فلم يسيغوا هذه الغصة، وأخذتهم العزة بالإثم فاعتزموا على ألا يتركوا القوم الذين تركوهم على حال طمأنينة.

فاخـــتارت قريش رجلين ليحدثا النجاشي في أن يسلم المسلمين لقريش ولكن فشلوا في ذلك لأن النجاشي سمع من المسلمين وعلم بصدق الإسلام.

المقاطعة العامة

وقعت أربع حوادث ضخمة-بالنسبة إلى المشركين-خلال أربعة أسابيع، أو في أقل مدة، منها:

١-أسلم حمزة بن عبد المطلب .

٢-أسلم عمر بن الخطاب.

٣-رفض محمد مساومتهم.

٤-تواثق بنو هاشم وبنو عبد المطلب مشركهم ومسلمهم.

فما كان من قريش إلا أن اجتمعوا في خيف بني كنانة فتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه، وكتبوا ذلك في صحيفة كتبها بغيض بن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده، وعلقت هذه الصحيفة في جوف الكعبة، ونفذ الحكم على بني هاشم والمطلب إلا أبو لهب .

استمر ذلك الحصار ثلاثة أعوام كاملة، أصاب بنو هاشم والمطلب فيهم الجوع القارص والموت من شدة الجوع والعطش ولكنهم كانوا يخافون على إبنهم محمد أكثر من خوفهم على أنفسهم، وبعد مرور ثلاث سنوات اشتد غيظ الكارهين لهذا الميثاق من أهل قريش، فحاول الكارهون لهذا الميثاق نقضه وبالفعل نقض الميثاق، ودخل رجال قريش لأخذ الصحيفة من الكعبة فوجدوا أن النمل قرض الصحيفة إلا موضع "بسم الله" وما كان فيها من اسم الله تعالى.

فخرج أبو طالب ومن معه من بني هاشم وبني عبد المطلب من الشِّعْب وخــف عنهم البلاء ومضى رسول الله ﷺ في طريقه إلى دعوته وكان ذلك سببًا في مساومة قريش لرسول الله مرة ثالثة فرفض ﷺ.

عام الحزن

خــرج النبي ﷺ وأهله من الحصار الذي ضربته عليهم قريش، وعاد إلى دعوتــه في مكة بين أهلها، وبين من يفدون إليها من القبائل العربية في موســم الحج ولعلك عرفت مما ذكره عن السيدة خديجة ﷺ كيف كانت تقف إلى جانــبه مــنذ أن ارتــبطت به برابطة الزواج وكيف كان موقفها عندما أخبرها بما حدث له في غار حراء على يد جبريل عليه السلام ؟

فلقد صدقته وآمنت به منذ اللحظة الأولى وواسته بمالها وهونت عليه الشــدائد كلها، فكانت له ملاك رحمة يجد عندها الأمن والطمأنينة كلما عاد إليها مهمومًا مكلومًا من صنيع قريش معه.

ولعــلك عرفت كذلك موقف عمه أبي طالب منه ونصرته له مع أنه لم يؤمن بدعوته وعدم تفريطه فيه وكيف كانت قريش تخشى أبا طالب وتحسب لــه حســابًا كلما همت أن تؤذي رسول الله، حقًا لقد كان أبو طالب والسيدة خديجــة أكبر عون للنبي ﷺ ولكن القدر أراد أن يحرمه منهما دفعة واحدة، فلم تكد تمضي بضعة أشهر على نقض الصحيفة وانفراج أزمة الحصار حتى فاجــأت الأقدار النبي بموت عمه أبي طالب، وزوجته خديجة، فكان لموتهما وقــع مؤلم على نفسه فتأثر لفقدهما أبلغ التأثر، وحزن لوفاتهما أشد الحزن، حــتى ســمى ذلك العام "عام الحزن" وكان النبي يدرك أنه لم يحرم فقط من عمــه وزوجته، ولكنه كان متأكدًا أن قريشًا سوف تعود لهدم الدعوة ووضع

العــراقيل أمام دعوته، ولكنه على الرغم من ذلك، ومن الحزن العميق الذي أصــابه بوفاة عمه وزوجته، فإنه لم يضعف ولم تقل عزيمته، بل كان واثقًا من نصر الله له، وأنه بجانبه يؤيده، ويهئ لدعوته أسباب النجاح فمضى في طريقه يكافح حتى يبلغ رسالة الله للعالمين.

الإسراء والمعراج

فــي هــذا الجو الذي بدا قاتمًا بعد موت خديجة ﷺ، وبعد موت أبي طــالب، وبعــد مــا لقيه الرسول من القبائل التي عرض نفسه عليها، ومع إصــرار قريش على مواقفها وعنادها وكفرها بالله ورسوله ﷺ في هذا الجو وبعــد كل هذه المضايقات التي بدت وكأن الأمور تسير في الاتجاه المعاكس أراد الله تعالى أن يُسَرِّي عن نبيه، وأن يعلمه بطريقة عملية ألا يهتم بهؤلاء جميعًا، فما قريش وما مكة وما العرب جميعًا أمام عظمة الله وقدرته، وماذا يكون هؤلاء في ملكوت الله الواسع الرحيب، أراد الله أن يأخذ نبيه إلى رحلة روحانية يطلعه فيها على عوالم وأحوال لا تخطر على بال بشر، وليريه من آياته الكبرى ويشرح صدره، ويعلي في العالمين ذكره، فكانت رحلة الإسراء والمعراج، وملخص هذه القصة :

أن رســول الله كان في تلك الليلة التي حدث فيها الإسراء في بيت أم هــانيء بــنت عمه أبي طالب، وفي أثناء الليل جاءه جبريل ومعه البراق، وأخــذه إلى بيت المقدس في فلسطين، حيث كان في استقباله هناك جمع من الأنبياء فيهم: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

فصلى النبي بهم إمامًا ركعتين، وبعد أن احتفوا به صعد إلى السموات والتقى بإخوانه الأنبياء كل في مكانه، فالتقى بآدم وإدريس ونوح، وإبراهيم،

وموســـى، وهارون، وداود، وسليمان، ويحى، وعيسى، وتحدث إليهم وهنأوه وحَيَّوْه.

ثم ارتقى إلى السموات العلى حيث رأى من آيات ربه الكبرى، ورأى الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وحور عين أعدت للمتقين، ورأى النار ومافيها مـــن حميـــم وسعير أعدت للكافرين، ثم فرضت عليه وعلى أمته الصلوات الخمس.

ولكـــن المشركين حين سمعوا ذلك حاولوا أن يقنعوا الناس أن رسول الله ﷺ كذاب، وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له: تعال واسمع ما يقول صاحبك؟ فقال لهم: ماذا قال؟.

قالوا: إنه يقول: إنه أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعاد إلى مكة في ليلة واحدة ..! فقال أبو بكر على الفور: إن كان قال ذلك فقد صدق.

بيعة العقبة الأولى

لمـــا وصـــلت أخبار النبي ﷺ إلى يثرب استشرفت نفوسهم إلى سماع المـــزيد عـــنه، فوفـــد منهم في موسم الحج التالي اثنا عشر رجلاً إلى مكة، والتقوا بالنبي ﷺ وعرافوه أن أخباره بلغتهم، وأنهم يرغبون في سماع المزيد عـــن هذا الدين الذي يدعو إليه، فشرح لهم الرسول مضمون رسالته ودعوته إلى التوحيد الخالص لله وحده، وسَرَّه أن وجد لديهم استجابة لسماعه والإيمان بـــه ، فبايعوه على أن يؤمنوا بالله وحده ولا يشركوا معه أحدًا، وألا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا الله في معروف، وبايعهم النبي على أن مَنْ وفي منهم بذلـــك فجزاؤه الجنة، ومن خالف عن شيء من ذلك فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

أرسل النبي معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن ويعلمهم أمور الدين.

بيعة العقبة الثانية

نجح مصعب بن عمير مبعوث النبي ﷺ في مهمته نجاحًا باهرًا، فازداد عدد المسلمين في يثرب، ولم يبق بها بيت إلا وفيه ذكر الإسلام والنبي، وعاد مصعب إلى مكة ليزف على النبي بشرى نجاحه وإقبال أهل يثرب علي الإسلام، وأن وفدًا كبيرًا منهم سوف يقدم إلى مكة في الموسم القادم وسوف يلقاهم، ويرى من حالهم ما يسره وفلعلاً ما وافى الموسم حتى قدم إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلاً معهم امرأتان جميعهم من مسلمي يثرب، فاتصلوا بالنبي وطمأنوه على وضع الإسلام بيثرب وواعوده على لقائه سرًا عند العقبة، واستعد رسول الله ﷺ لهذا اللقاء وأخبر به عمه العباس بن عبدالمطلب مع أنه كان مازال مشركًا. فرغب في حضور هذا الاجتماع الخطير ليطمئن على مستقبل إبن أخيه.

ولكن فكر النبي في أن يخطو مع أهل يثرب خطوة عظيمة إلى الأمام، فلا يكتفي بدعوتهم إلى الإسلام على نحو ما فعل مع إخوانهم في العام السابق، بل أراد أن يعقد معهم حلفاً ولا مانع من أن يهاجر إلى بلدهم، إذا توفرت لديهم الاستجابة الكافية لذلك، وتم اللقاء، ووجد النبي ﷺ القوم على أتم استعداد لأن يذهبوا معه إلى حيث يريد، ووجد قلوبهم مفتوحة له، وبلدهم مفتوحاً لدعوته ومستعداً لاستقباله.

قال لهم النبي ﷺ : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

ومعنى هذا أن النبي ﷺ طلب منهم تعهداً بحمايته والدفاع عنه ضد أي عدوان .

فتقدم البراء بن معرور وكان من أكابر الوفد وقال: "بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب أهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر".

فقام رجل منهم قائلاً: وبايعنا أنت أيضا يا رسول الله .

فتبسم النبي، وأجاب في عبارة واضحة قاطعة: " بل الدم الدم، والهدم الهدم".

أي أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

الهجـــــرة

• رحلة هادينا

الهجرة رحـــلة هادينــــــا   نشر الإســـــــلام بوادينا
من بعد القـــهر وظلمتـــــه   أضحى صـــرح الدين متيناً
في مكة ينـــشر الدعــــوة   يرجو الإســـلام لهم دينا
فتولى الكفار عنهم غروراً   عادوه شهوراً وسنيـــــــناً

* * *

يا ويل قريش إذا غـــدروا   نصبوا للمختار كميــــــنًا
فوقاه الله ضغينتهـــــــــم   أعمى أبصـــــــار الغاويـــنا
فأصاب تراب أعينهــــــم   ورؤوسا في النوم بقيــــــنا
معجـــــــــــزة لله تجلت   فأصمت قوماً طاغينــــــــا

فاختار نبي الله أخـــــاً صديقاً للسر أمينــــــاً
نزلا في الغار فطاردهــم من جعل الشيطان قريناً
فسعى يطلبهم في جـــد مرتقب للمال ضنـــــينًا

***

بقى الصديق يلازمـــــه ويروح شمالاً ويمينـــاً
وفهيره يمحـــــــو آثارًا من بعد أريقط حادينــــا
وابن الصديق يخــــبرهم أنباء قريش تطمينـــــا
ورسول الله يطمئنـــــه في الغار يرقبهم حينـــــا

***

لا تحزن يا صاح فإنــــا لا ريب سنمضى ناجيـــنـــا
الله الخالق يرعانــــــا والعـــون مديد يكفينـــــا
ماظنــــــك باثنين بالله ثالثهم؟ لا تبق حزينـــــا
حيث بلغوا طيبه عــصراً والفرحة تغشاك نبيــــــنا
فعلا في الأنصار نــشيداً وما في الأشعار رويــــنا
هتفوا طلع البدر علــــينا وأنار الدين بواديـــــــنا
يدعون الله له نصـــــراً والكون يردد آمينـــــــاً
في يثرب قامت دولـــته وعلا صوت الحق مبينـــاً

هجرة النبي ﷺ

لقـــد اجتمع رؤساء المشركين في دار الندوة وخططوا لقتل رسول الله ﷺ بـــأيدي كـــل قبائل قريش حتى يضع دمه بينهم، فنزل جبريل بوحي ربه تـــبارك وتعـــالى وأخـــبره بما في خطة قريش وأن الله سبحانه وتعالى أمره بالهجرة وأنه لم يبت الليلة في بيته الذي ينام فيه.

واجـــتمع جميـــع مـــن اختارته قريش ووقفوا بباب رسول الله ﷺ ولقد اختارت قريش لذلك الأمر أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر ، وهم :

١- أبو جهل بن هشام.

٢- الحكم بن أبى العاص.

٣- عقبة بن أبي معيط.

٤- النضر بن الحارث.

٥- أمية بن خلف

٦- زمعة بن الأسود.

٧- طعيمة بن عدي

٨- أبولهب.

٩- أبي بن خلف .

١٠- نبيه بن الحجاج .

١١- منبه بن الحجاج.

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشاً، ففي هذه الســاعة الحــرجة قال رسول الله ﷺ لابن عمه علي بن أبى طالب: نم في فراشي وضع بردتي عليك.

ثــم خرج رسول الله واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من التراب لها على رؤوسهم وهم لم يرونه وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾(يس: ٩)

وبعدما خرج علم الرسول ﷺ أن قريشًا ستبحث عنه بجد واجتهاد فمشى تجاه المدينة حتى وصل إلى جبل عظيم شاهق يقال له ثور ونظرا فوجدا غارًا في هذا الجبل فدخل الرسول وصاحبه أبو بكر الصديق ؓ فأخذوا يبحثون عن رسول الله ﷺ لم يستطيعوا الوصول إليه لأن الله حماه.

وحيــن خمدت نار طلبهم وتوقفت أعمال التفتيش، وهدأت ثائرة قريش تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي وكان ماهرًا في معرفة الطرق.

وعمــلت أســماء عمــلاً رائعًــا في هذه المحنة، فكانت توصل لهما الطعــام.ونــالت يثرب شرف دخول النبي ﷺ وكان دخوله فيها يوم الجمعة وتغير إسمها فأطلق عليها مدينة رسول الله ﷺ. فكان يومًا تاريخيًا أغر، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحاً وسروراً:

أشرق البدر علينـــــــا من ثنيات الــــــــــوداع

وجب الشكر علينـــــــــا ما دعـــــــــــــــا لله داع

أيها المبعوث فينــــــــــا جئت بالأمر المطـــــــــــــاع

والأنصـــــار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل رسول الله ﷺ عنده، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا براحلته كي ينزل عنده، ولكنه كان يقول لهم: اتركوها فهي مأمورة فحيث وقفت نزل رسول الله ﷺ .

قواعد ثابتة للمجتمع

عمــل النــبي ﷺ على الإخاء بين المهاجرين والأنصار وزرع الحب بينهم.فقد عقد معاهدة بين المسلمين واليهود وكانت بنودها:

١–إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود.

٢–وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣–وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤–وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٥–وأن لا يأثم امرؤ بحليفه.

٦–وإن النصر للمظلوم.

٧–وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨–وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة.

٩-وإنـــه مـــا كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ .

١٠-وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١١-وإن بيـــنهم النصر على من دهم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١٢-وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

ومن هنا أصبح مجتمع يثرب وضواحيه لرسول الله السيطرة عليه.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدات.

بناء المسجد النبوي

أول عمل عمله الرسول ﷺ في المدينة هو بناء مسجده، وكان اختيار مكانه ربانيًا حيث بنى المسجد مكان أن وقفت ناقة رسول الله ﷺ .

واشترى رسول الله الأرض من غلامين يتيمين كانا يملكانها، وساهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجـــــرة

ولم يكن مسجد الرسول للصلاة فحسب بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته.

غزوات الرسول ﷺ

- غزوة بدر
- غزوة أحد
- غزوة الأحزاب
- غزوة بني قريظة
- غزوة بني المصطلق
- وقعة الحديبية
- غزوة ذى قرد
- غزوة خيبر
- غزوة ذات الرقاع
- معركة مؤتة
- سرية ذات السلاسل
- غزوة فتح مكة
- غزوة حُنَيّن
- غزوة الطائف
- غزوة تبوك

وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في كتاب بعنوان "غزوات الرسول ﷺ".

حجـــة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة وبناء المجتمع الجديد على أساس إثبات الألوهية لله وحده ونفي الأنداد والطواغيت وتلك الأحجار التي لا تنفع ولا تضر.

فأعلن النبي ﷺ أنه يريد أن يذهب ليحج بيت الله الحرام هذا العام فسار إلى مكة وبعدما فرغ من حجة الوداع وانتهى من تعليم أمته مناسك الحج. ركب ليرجع إلى المدينة المنورة لا ليرتاح وإنما ليواصل الطريق الذي أمره الله أن يسير فيه، إنه طريق دعوة العباد إلى عبادة رب العباد.

وفاة الرسول ﷺ

في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ وكان يوم الاثنين أخذه صداع في رأسه، فمنه جلس النبي في مرضه حتى يوم فاته فخرج إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر وقام على باب عائشة فكاد المسلمون يُفتنون وينشغلون عن صلاتهم فرحًا برسول الله حين رأوه وهمَّ أبو بكر أن يتأخر فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم وتبسم ﷺ لما رأى من هيئتهم في صلاتهم ثم رجع وأرخى الستر.

وعاد وقد اقترب الأجل وبدأت اللحظات الأخيرة من عمره الشريف تتلاشى وتنتهي .

فمات رسول الله ﷺ وهو يقول:بل الرفيق الأعلى. بل الرفيق الأعلى..، بل الرفيق الأعلى فعلمت أنه لا يختارنا .

أي: لا يختار الدنيا ويترك الآخرة لا يختار هذه الحياة الفانية ويفضلها على الحياة الباقية.

وتسرب نبأ الوفاة وأظلمت المدينة لكثرة الحزن وبدأ الصحابة يفطنون ما كان متوقعًا صراخ ودهشة إنه رسول الله فذاك موقف عمر بن الخطاب:

قــال: إن رجلاً من المنافقين يزعم أن رسول الله قد مات، وإن رسول الله ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل أنه قد مات .

ووالله ليــرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

وهذا أبو بكر:

دخــل المســجد فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فعلم بوفاته ثم خـــرج فرأى عمر فقال: اجلس يا عمر، فرفض عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.(آل عمران: ١٤٤).

وهكــذا كــانت حياة رسول الله حياة مجملة بالعمل لله وللدين بالعمل لإعلان كلمة التوحيد فصلى الله عليه وسلم.

الفهـــــــرس